الإجتماعى فى آن » فهى تمس ــ فى التحليل الأخير ــ البناء الوجدانى للشعب •

٥ ــ الرحلة فى (المكان) وفكرة نقد المجتمع فى « حديث عيسى بن هشام » :

عشنا مع « المويلحى » فى مغامرته الفكرية والروحية فى رحلته الأولى فى **« الزمان »** حيث مضى يرقب ما طرأ على الواقع من تغير أو تغيير أصاب صورة الانسان على نحو لم يألفه « عيسى بن هشام » و « الباشا » •

أما الرحلة الثانية ، فقد كانت فى **« المكان »** حيث سافر « عيسى بن هشام » فى رحلة بحث عن **« الذات القومية والحضارية »** • والقراءة الفاحصة للقضايا التى طرحها أو أثارها « المويلحى » فى كتابه ــ استجابة لما طرأ على الواقع الاجتماعى من تغيير ــ تشى بتواصل فكرى بينها وبين واقعنا المعاصر • وكأننا ــ من وجهة نظر تاريخية ــ نبحث فى جذور الماضى عن تفسير للحاضر ورؤية للمستقبل •

ان الرحلة **(فى الزمان)** و **(المكان)** محاولة جادة من « المويلحى » للبحث عن الشخصية المصرية ومستقبل مصر •• الى أين ؟ ! ولعل جذور ما يسمى بأزمة انفصال المثقف المصرى عن واقعه تندس فى حنايا القضايا المطروحة فى الكتاب • وهذا الانفصال هو ــ على الأرجح ــ ثمرة للانقطاع التاريخى بين مرحلة ازدهار الحضارة الاسلامية وما أعقبها من فترات ظلام •

والأزمة تنبىء هنا عن تحول حلم المثقفين فى « التغيير الاجتماعى » الذى بشر به الرواد العظام : الجبرتى ، حسن العطار ، الطهطاوى ، الأفغانى ، محمد عبده ، تحول حلم هؤلاء المثقفين الى عجز عن فهم الواقع الاجتماعى واستيعابه • وفى الوقت نفسه ، افتقاد القدرة على طرح حلول لمواجهة التحديات التى يفرضها الواقع بفعل جموده بشكل عات ولهيمنة القوى الاستعمارية على قدراته •

أصبح المثقفون نهبا لتيارات متلاطمة تتدافع بين دعاة التغريب وانكار دور التراث ، وبين تيار آخر يرى أن ما أصاب المجتمع المصرى ، والشرق عامة ، انما مرده ــ فى التحليل الأخير ــ أنهم نسوا التراث ، فأنساهم أنفسهم • وأنصار هذا التيار يرى أن لا خلاص الا بالعودة الى التراث • بينما يرى أنصار التيار الثالث أننا لا نستطيع ــ ولو حرصنا ــ أن ننسلخ عن الماضى ، عن تراثنا ، انه نحن • وهذا التيار يتميز بقدرته على « النظرة التاريخية » للتراث بالمعنى الذى حددناه فى هذه الدراسة (١) • وهى نظرة تدمج الماضى فى الحاضر ، وتتجاوزه لتعبر عن واقعها ، مستشرفة آفاق غدها • وهى النظرة التى ينتمى اليها « المويلحى » وقد بدت رؤيته واضحة جلية ، فى قضية « الشرق والغرب » •

ألحت « قضية الشرق والغرب » على وجدان « المويلحى » • وقد سبق أن صور « رفاعة الطهطاوى » ارهاصات تلك الأزمة فى كتابه « تخليص الابريز » وعلى مبارك فى « علم الدين » (٢) • لكنهما كانا يصدران عن روح منفتحة على الغرب •• روح تدعو الى نقل مظاهر الحضارة الغربية وغرسها فى تربة الواقع المصرى • وعلى الرغم من تحفظاتهما على جوانب من تلك الحضارة الغربية التى لا تتفق وتراثنا الحضارى الموروث الا أنهما لم يصطدما بالاحتكاك المباشر بها • وظلت دعوتهما ــ على المستوى النظرى ــ لا تؤتى ثمارها فى التربة المصرية فى حينها ، بل آتت أكلها زمن « المويلحى » • والعنوان الفرعى للكتاب (فترة من الزمن) (٣) يشى بالأزمة التى احتدمت داخل وجدان

---

(١) انظر : ص ٥٧ من هذه الدراسة .
(٢) انظر : ص ٥٤ من هذه الدراسة (الهامش) .
(٣) هذا هو العنوان الرئيسى عندما نشر فى جريدة « مصباح الشرق » وتكمن جذور الفكر الاجتماعى عند « المويلحى » فى المقالات التى كان ينشرها فى جريدة « مصباح الشرق » . والمتأمل فى هذه المقالات يلمس مدى انشغال « المويلحى » بالقضايا الاجتماعية ، والصراع المحتدم بين روح الفنان فى داخله =

« المويلحى » • الصراع بين روح الفنان ومسئولية الباحث الاجتماعى فى آن • فكأنه أطـل ببصرته على عصره ليصور هذه الفترة من الزمن •

ودراسة الواقع الاقتصـادى والاجتمـاعى والثقافى للمجتمـع المصرى آنذاك تكشف عن مدى التأزم الذى كانت تعانى منه الشخصية المصرية بـكل ما تحمـل من تراكمات ينوء بهـا كاهلها عبر تاريخهـا الطويل •

و « المويلحى » ــ على لسـان الحكيم ــ يقول : « ••• لهـذه المدنية الكثير من المحاسن كما أن لها الكثير من المساوى ، فلا تغمطوها حقها ، ولا تبخسوها قدرها ، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم ، ويلتئم بكم ، واتركوا ما يضركم ، وينافى طباعكم ، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعاتها ، وعظيم آلاتها ، واتخذوا منها قوة تصد عنكم أذى الطامعين ، وشره المستعمرين ، وانقلوا محاسن الغرب الى الشـرق ، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميـل عاداتكم ، فأنتم بهـا فى غنى عن التخلق بأخلاق غيركم ، وتمتعوا فى رخاء بلادكم ، وسـعة أرزاقكم ، وأحمدوا الله على ما أتاكم » [١] •

فالمويلحى يؤكد على ضرورة الاهتمـام بالجـوانب المشرقة من التراث • ونظرته تقوم على مراجعة الموقف من هيمنة التراث الكاملـة بكل ما تتسم به « بطركية التراث » من سطوة • خاصة وأننا لا نستطيع

= وروح الباحث الاجتماعى فى آن . كما تكشف عن اهتمامه بالافادة من الشكل القصصى فى استيعاب المضمون الاجتماعى الاصلاحى .

على أن هذه المقالات ، بمقارنتها بالموضوعات التى عالجها فى « الحديث » تلقى ظلا على تداخل المقال الصحفى فى فن المقامة . ثم من جانب آخر تكشف عن الدوافع الدفينة للمادة الروائية التى استثمرها الكاتب . فقد نشر فى جريدة « مصباح الشرق » تحت عنوان « الشرق والغرب » فى ١٨٩٨/٦/٢٣ ، ١٨٩٨/٧/٧ ، ١٨٩٨/٨/٤ ، ١٨٩٨/٧/٢١ وعن « الشرق وحده » فى ١٨٩٨/٧/٢٨ ، ١٨٩٨/٨/٤ ، وعن « توحش التمدين » فى ١٩٠١/١/٤ ، ١٩٠١/٩/٦ .

(١) حديث عيسى بن هشام ، ص ٣٥١ . وانظر : ص ٢٩٩ ، ٣ .

أن نقتلع جذور الحضارة الشرقية التى أنبتتنا ، ونحن نعيش فى الحاضر ، ولكن دم الماضى يجرى فى عروقنا ، وبين الحاضر والماضى تناقض واضح • ومن هنا تولدت الأزمة [١] •

والقارىء لحديث عيسى بن هشام يلمس أن الرحلة الثانية لم تكن بالقدر المتوازن مع الرحلة الأولى من حيث القضايا التى تعرض لها فاكتفى بالمظهر دون الجوهر • فلم نلمس اهتزاز الوجدان ولا تقلقل الخاطر ، ولا دهشة الفنان الذى يصطدم بأشياء مغايرة لما اعتادت نفسه وجوارحه • وعلة ذلك أنه لم يتحسس الواقع تحسسا مباشرا وينغمس فى أجواء المجتمع الأوروبى على نحو ما فعل « الطهطاوى » العظيم بل جاءت نظرته « نظرة سائح » • ولعل « زكى مبارك » لم يبعد عن الحقيقة حين رأى علة هذا الاختلال أن « المويلحى » لم يعرف باريس ، وان زار باريس ولو أنه عرف تلك المدينة فى حياتها الحقيقية « كما عرف القاهرة فى حياتها الحقيقية » لقال فيها كلاما غير الذى قال ، ولكان من الجائز أن يفردها بكتاب يشرح ما تعانى من اصطراع المذاهب والآراء ، فقد زار باريس وهى فى عنفوان الفتوة ، وفى اتصال وثيق بأمم الغرب والشرق ، ومع هذا لم يستطع أن يدون من حيواتها غير بوارق مهددة بالخمود •••

وخلاصة القول ان اخفاق المويلحى فى تصوير الحياة الباريسية يرجع الى أنه **لم يعان فيها مشكلات تزلزل العقل أو تثير الوجدان** ، فجاء حديثه عن تلك الحياة أضعف وأضعف من أن يسامى حديثه الأول فى وصف المحياة المصرية • والأدب يأخذ قوته من التجارب والمشاهدات ، لا من الحدس والتخمين » [٣] •

---

(٢) انظر : رشاد رشدى ، المويلحى ومغامرات عيسى بن هشام ، آخر ساعة ، العدد ١٠١٤ ، ٣١ مارس ١٩٥٤ ، ص ٢٩ .

(٣) زكى مبارك ، حديث عيسى بن هشام ، مجلة الرسالة ، العدد ٤٨٦ فى ٢٦ أكتوبر ١٩٤٢ .

مهما يكن من أمر ، فالكتاب ثمرة من ثمار « القلق الاجتماعى » وفى أحضانه ترقد أزمة المثقف وتفرخ •

٦ ــ فكرة النقد الاجتماعى والشكل الأدبى :

معطيات تراثية :

المشكلات التى واجهت « المويلحى » هى كيف يقدم عطاءه الفنى ؟ لقد كان أمامه النموذج الأدبى الذى قام به « على مبارك » فى كتاب « علم الدين » • وهو أثر أدبى استلهم المقامة • واتخذ قالب رحلة يقوم بها الشيخ علم الدين مع مستشرق أنجليزى ، طافا معا بجوانب الحياة المصرية ثم رحلا الى بلاد الانجليز • وقد صور « على مبارك » مشاهداتهما ، ورصد من خلال مشاهد روائية ما طرأ على مصر من تغيير استتبع ضرورة غرس قيم جديدة فى التربة المصرية • ومن هنا كان هدفه تعليميا مباشرا •

وقد استفاد المويلحى من هذا العمل الأدبى من حيث طرح القضية الحضارية التى يمور بها المجتمع المصرى ، ولكن مع تغيير فى المهمة التى يصور بها فكرة التغيير الاجتماعى ، وهى جوهر النقد الاجتماعى فى الكتاب • و « على مبارك » فى « علم الدين » كان يستجيب لحاجة مجتمعه ــ مع مراعاة أنها كتبت قبل الاحتلال الانجليزى لمصر ــ ولم تكن المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الوجه الكئيب ــ الاحتلال ــ من الاحتكاك بين الشرق والغرب ، قد أطلت برأسها على الواقع الاجتماعى • وكانت الرغبة فى نقل مظاهر الحضارة الغربية هى المطلب الرئيسى لـ « على مبارك » و « الطهطاوى » وغيرهما من رواد الفكر العربى الحديث •

أما عصر المويلحى فكان عصر الاحتلال الانجليزى • وكان الرجل فى طليعة المثقفين المصريين الذين قاوموا الاحتلال ابان الثورة العرابية ، وعانى مرارة فشلها • وظلت الروح الثائرة متأججة فى وجدانه • ووجد ــ كبور جوازى أصيل ــ أن لا جدوى من العنف الثورى ، وأن التدرج فى الاصلاح هو المهاد الطبيعى لتحقيق الأهداف النبيلة للثورة •